إدوار سعيـــد

مقـــدّمة في معـــاني الإســـتشـــراق

ـ ١ ـ

خلال زيارة لبيروت ابان الحرب الأهلية الرهيبة (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) كتب صحافي فرنسي بكثير من التحسر والأسف عن المنطقة التجارية بأزقتها وشوارعها الضيقة قائلا : « إنها قد بدت في وقت من الأوقات وكأنها تنتمي إلى ... الشرق الذي عرفه شاتوبريان ونرفال »[١] وبالطبع ، كان مصيباً بشأن المكان ، لا سيما وان الأمر يتعلق بشخص أوروبي . فالشرق هو اختراع اوروبي تقريباً ، ولقد درج منذ عهود سحيقة في القدم على كونه موئلا للرومانس (Romance) والكائنات الغريبة جداً والذكريات والمناظر الطبيعية الخلابة والتجارب الرائعة . والآن أخذ هذا الشرق في الزوال . كان حدثا بمعنى ما ، وانتهى وقته . ولربما بدا الأمر غير وثيق الصلة في أن الشرقيين أنفسهم كانوا يجازفون بشيء ما خلال العملية ، وانه حتى في زمن شاتوبريان ونرفال عاش هناك شرقيون ، وهؤلاء هم الذين يعانون ويتألمون حالياً . فالشيء الرئيسي بالنسبة للزائر الأوروبي هو قصور أوروبي للشرق ولمصيره المعاصر ، وكلاهما قد انطوى على دلالة أهلية امتيازية بالنسبة للصحافي الفرنسي ولقرائه الفرنسيين .

ولن يشعر الاميركيون على نحو مماثل تماماً تجاه الشرق ، لأنه من المرجح اكثر أن يرتبط الشرق في تصورهم على نسق مختلف جداً بـ « الشرق الأقصى » (أي : الصين واليابان ، بشكل رئيسي) . وخلافاً للأميركيين ، فقد امتلك الفرنسيون والبريطانيون ـ والألمان والروس والاسبان والبرتغاليون والايطاليون والسويسريون بدرجة أقل ـ تقليداً طويلا مما سوف ندعوه [في هذا الكتاب] بـ « **الاستشراق** » ، وهو كناية عن طريقة للتصالح أو التفاهم مع الشرق ترتكز على المكانة الخاصة التي يحتلها الشرق في التجربة الغربية الأوروبية . فالشرق ليس متاخماً لأوروبا فحسب ، بل هو المكان الذي قامت فيه أعظم مستعمرات اوروبا وأغناها وأقدمها ، إنه مصدر مدنياتها ولغاتها ، ومنافسها الحضاري ، وصورة من أعمق صورها عن الآخر وأكثر تكراراً . واضافة الى ذلك ، فالشرق ساعد في تحديد أوروبا (أو الغرب) وصورتها المتباينة ، وفكرتها وشخصيتها وتجربتها . ومع ذلك لا شيء من هذا الشرق هو مجرد تخيل .